العدد الواحد والعشرون
2004

مجلة كليّة

الدعوة الإسلامية

مجلّة إسلاميّة - ثقافيّة - جامعة - محكّمة تصدر سنويًا

1372 من وفاة الرّسول ﷺ الموافق لعام 2004 مسيحي

- من بلاغة الضّمائر في القرآن الكريم
- الفكر الأندلسيّ والافتراضات الإيديولوجيّة للنّهضة الأوروبيّة
- من أعلام ليبيا (الشيخ أحمد البهلول)
- بصمات يهوديّة على حركة الاستشراق

من بلاغة الضمائر في القرآن الكريم

دكتور شلتاغ عبّود

تمهيد :

تمر على قارئ كتاب الله العزيز لحظات صفاء وتأمل، ويلتفت إلى بعض القضايا المعنوية أو الفنية، ويظن ـ أحياناً ـ أنه لم يلتفت إليها أحدٌ قبله. وهذا ما حدث معي وأنا أتأمل مواضع الضمير وتنوّعه ودلالاته وظهوره وخفاءه وتوكيده في القرآن الكريم، وما أن أخذت بمراجعة كتب البلاغة وعلوم القرآن حتى وجدت البلاغيين وعلماء العلوم القرآنية يشيرون إلى هذه القضايا بالإيجاز تارة وبالتفصيل تارة أخرى، ومنفصلة مرّة، ومرتبطة بموضوع المبهمات مرة أخرى.

والحق أن المرء ليتردد، وهو بصدد التأمل بمعاني القرآن أو أساليبه خشية أن يجانبه الصواب أو يقول ما ليس بحق، ولكن الذي يخفف عنّا عبْء هذا

الإحساس أننا لسنا بصدد استنباط للأحكام الشرعية أو التحقيق في معاني التأويل الخلافية أو بمعرض التفسير بمعناه الواسع، بل هي أحاسيس تعرض للنفس وهي تقف أمام المعجزة القرآنية الباهرة في مضامينها وأساليبها. يقول الشيخ الزرقاني في هذا الصدد: (أما المعاني العامة التي يستشعر بها المرء عظمة مولاه، والتي يفهمها الإنسان عند إطلاق اللفظ الكريم فهي قَدْرٌ يكاد يكون مشتركاً بين عامة الناس، وهو المأمور به للتدبر والتذكر، لأنه ـ سبحانه سهّله ويسّره، وذلك أدنى مراتب التفسير)[1].

وقد يقال: إن موضوع الضمائر قد تناولته كتب النحو في كثير من جزئياتها بما فيه الكفاية، ولم يتركوا شيئاً لمستزيد: نقول: قد يكون هذا حقاً في مجال علم النحو ووظيفته، ولكننا نقف عند الموضوع من وجهته البلاغية، وهو وإن عرض له في كثير من الكتب والأبحاث ولكنه ما يزال بحاجة إلى وقفات في مجال المنهج والفهم والانطباع والأثر الذي يتركه في النفس إبهامه وتوكيده وتنوعه، وهذا أمر فيه متسع للقول أو التعبير عن الإحساس ما تعدد الناس، وما تعددت مشاربهم ودرجات استعداداتهم الفطرية والمكتسبة. ولا ندّعي أننا سنأتي بجديد في الموضوع، ولكنه نوع من الإشارة إلى الحاجة في إعادة النظر والتأمل، ونسأله تعالى التسديد والصواب. وسوف نتناول من الموضوع الوجوه الآتية:

أولاً ـ الإظهار والإضمار والعدول من أحدهما إلى الآخر:

من المعلوم أَنَّ الضمير ينوب مناب الاسم الظاهر ويعبر عنه. ويعدل عن الاسم الظاهر إلى الضمير لأسباب منها: الاختصار والتفخيم والتحقير وغيرها[2]. ولكن قد يقتضي المقام الإتيان بالضمير فيعدل عنه إلى الاسم الظاهر لدواعٍ معنوية ولفظية. وهذا هو الملحظ البلاغي في الموضوع. أي أن الأصل

(1) مناهل العرفان في علوم القرآن، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة، د.ط، د.ت. حـ2، ص51.

(2) البرهان في علوم القرآن، بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، دار المعرفة، بيروت، ط2، 1973، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ـح4، ص24.

أن يؤتى بالضمير كقوله تعالى: ﴿فَٱبْتَغُواْ عِندَ ٱللَّهِ ٱلرِّزْقَ وَٱعْبُدُوهُ وَٱشْكُرُواْ لَهُۥٓ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾[3]. وهو الهاء في (اعبدوه) و(اشكروا له) و(إليه). أما حين يكون الكلام على صيغة أخرى من مثل واعبدوا الله، واشكروا الله، وإلى الله تُرجعون، فلا بد من غرض للخروج على خلاف الأصل، وهو أن يعقب الاسم الضمير، لأنه نائب عنه، فلا داعي لذكر الاسم مرتين مع وجود ما ينوب عنه.

وقد سمى ضياء الدين بن الأثير هذا النوع من الخروج على الأصل بـ (عطف المظهر على ضميره، والإفصاح به بعده) لفائدة هي تعظيم شأن الأمر الذي أُظهر عنده الاسم المضمر أولاً، ومثّل له بقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ كَيْفَ يُبْدِئُ ٱللَّهُ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُۥٓ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى ٱللَّهِ يَسِيرٌ * قُلْ سِيرُواْ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُواْ كَيْفَ بَدَأَ ٱلْخَلْقَ ثُمَّ ٱللَّهُ يُنشِئُ ٱلنَّشْأَةَ ٱلْءَاخِرَةَ﴾[4]. وكان القياس أن يقول: يُبدئُ الله الخلقَ، ثم يُنشئُ النشأةَ الآخرة. ثم قال: (والفائدة في ذلك أنه لما كانت الإعادة عندهم من الأمور العظيمة، وكان صدر الكلام واقعاً معهم في الإبداء، وقرّرهم أن ذلك من الله، احتج عليهم بأنّ الإعادة إنشاء مثل الإبداء، وإذا كان الله الذي لا يُعجزه شيء هو الذي لا يعجزه الإبداء، فوجب أن لا تعجزه الإعادة، فللدلالة التنبيه على عظم هذا الأمر الذي هو الإعادة أبرز اسمه تعالى)[5].

وإذا كان الأمر هنا يتعلق بعظمة خلق الله وعظمة قدرته، فإنه يكون في مواضع أخرى من القرآن إشارة إلى عظم جرم أو اجتراء، كما في قوله تعالى: ﴿صٓ ۚ وَٱلْقُرْءَانِ ذِى ٱلذِّكْرِ * بَلِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ * كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ فَنَادَواْ وَّلَاتَ حِينَ مَنَاصٍ * وَعَجِبُوٓاْ أَن جَآءَهُم مُّنذِرٌ مِّنْهُمْ ۖ وَقَالَ ٱلْكَٰفِرُونَ هَٰذَا سَٰحِرٌ كَذَّابٌ﴾[6]. وكان القياسُ في استعمال الضمائر أن يُقال: وقالوا هذا ساحرٌ كذاب عطفاً على

---

(3) سورة العنكبوت، الآية 17.

(4) سورة العنكبوت، الآيتان: 19 و20.

(5) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، نهضة مصر، القاهرة، د.ت، د.ط، تحقيق د. أحمد الحوفي، ود. بدوي طبانة، حـ2، ص157.

(6) سورة ص، الآيات: 1 ـ 4.

«عجبوا»، وبعد ذكر المظهر الأول: (الذين كفروا). قال ابن الإثير: (وإنّما أتى باسم الكافرين، مظهراً بعد اضمار ـ للإشعار بتعظيم ما اجترأوا عليه من القول في أمر النبي ﷺ، أو لأن هذا القول كان أهم عندهم وأرسخَ في نفوسهم، فصرّح باسم قائله دلالة على ما كان في أنفسهم منه)[7].

وأكثر ما يكون من أمر هذا الإظهار مع لفظ الجلالة (الله) سبحانه، وأقل منه مع ذكر الكافرين والمعاندين، وأكثر ما يرد في فواصل الآيات وخواتيمها.

وجاء الزركشي بعد ابن الأثير فأضاف إلى أسباب الخروج عن الأصل، وهو ذكر الضمير بعد ذكر الاسم الظاهر، أسباباً كثيرة بلغ بها إلى سبعة عشر سبباً، منها: بالإضافة إلى التعظيم، قصد الإهانة والتحقير والاستلذاذ بذكره، وزيادة التقدير، وإزالة اللبس حيث يكون الضمير يوهم أنه غير المراد، وأن يكون القصد تربية المهابة وإدخال الروعة في ضمير السامع، وغيرها، مع تداخل واضح بين تلك الأسباب التي التقطها الزركشي ـ كما يبدو ـ من وقوفه على لفتات المفسرين على اختلاف مناهجهم[8]. وهذه القضية تشير بوضوح تام إلى مدى ما استغنت به الدراسات البلاغية بفضل القرآن العظيم ودراسة علومه والوقوف على مواطن إعجازه وبلاغته، إذ لولا هذا الوقوف على موضع الخروج من الإضمار إلى الإظهار في القرآن ما كانت هناك جهود توجه إلى هذا الموضع في الأساليب الأدبية، وبمثل هذا الاستقصاء والدأب الذي لا يبذل مع غير الكتاب المعجز، والذي يُراد من هذا الجهد استنباط الأحكام الشرعية منه بعد فهم أسراره البيانية مع مزيد من الرّغبة في البحث عن الثواب من لدن منشئه الحكيم الخبير.

ولا نريد، في هذا المجال، أن نستكثر، ونشير إلى المواضع السبعة عشر التي أشار إليها الزركشي، بل نقف عند ما ظاهره تكرار الاسم الظاهر الذي بالإمكان الاستغناء عنه بالضمير، وللعلماء فيه رأي غير رأي الزركشي في مثل

---

(7) نفسه، حـ2، ص159.

(8) البرهان، حـ2، ص484 ـ 498.

قوله تعالى: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلنَّاسِ * مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ﴾[9]. وكان يُفترض أن يقال: ملكهم وإلٰههم. ولكن الناس هنا ليسوا سواء في المواضع الأربعة من السورة. فقد روى الشيخ أبو علي الفضل بن الحسن الطبرسي، وهو من أكابر علماء الإمامية في القرن السادس الهجري عن جامع العلوم النحوي أنه قال: (وليس قوله (الناس) تكراراً لأن المراد بالأول الأجنّة، ولهذا قال: برب الناس، لأنه يربيهم. والمراد بالثاني الأطفال؛ ولذلك قال: ملك الناس لأنه يملكهم، والمراد بالثالث: البالغون المكلفون، ولذلك قال: إلٰه الناس لأنهم يعبدونه والمراد بالرابع العلماء، لأن الشيطان يوسوس إليهم، ولا يريد الجهال؛ لأن الجاهل يضل بجهله، وإنما تقع الوسوسة في قلب العالم)[10]. ومثل هذا قوله تعالى: ﴿وَٱلسَّمَآءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ * أَلَّا تَطْغَوْا۟ فِى ٱلْمِيزَانِ * وَأَقِيمُوا۟ ٱلْوَزْنَ بِٱلْقِسْطِ وَلَا تُخْسِرُوا۟ ٱلْمِيزَانَ﴾[11]، فقد يكون (الميزان) في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعَ ٱلْمِيزَانَ﴾ هو العدل كما روي عن الزجاج، والميزان فيما عداها آلة الوزن، فلا يكون فيها الإضمار مناسباً إذا كان المسمى غير واحد. وقد يكون المسمى واحداً وهو الميزان المادي فيكون ذكره من غير إضمار ليكون الثاني قائماً بنفسه في النهي عنه إذا قيل لهم: لا تطغوا في الميزان، كما قال الطبرسي[12]، أو (تشديداً للتوصية به وتقوية للأمر باستعماله والحث عليه) كما قال الزمخشري[13].

وربما يكون غير مناسب ما ذكره الزركشي أن العدول هنا من المضمر إلى الظاهر هو مراعاة للتجنيس[14]، فما ينبغي للأدب العالي أن يكون أسيراً للجانب الشكلي، وما عرف عن القرآن في تعامله مع الفاصلة أنها يُراعى فيها جانبان:

---

(9) سورة الناس، الآيات: 1 ـ 3.

(10) مجمع البيان في تفسير القرآن، دار مكتبة الحياة، بيروت، د.ط، د.ت، ح30، مج6، ص290 ـ كشف المشكلات وإيضاح المعضلات لجامع العلوم الباقولي 2/ 1497.

(11) سورة الرحمن، الآيات: 7 ـ 9.

(12) مجمع البيان، ح26، ص86، مج 6.

(13) الكشاف، ح3، ص188.

(14) البرهان، ح2، ص496.

الجانب الشكلي الموسيقي والجانب المعنوي كذلك. ولبعض العلماء رأي في التكرار في أوضح صوره المتجلية في سورة (الرحمن) وسورة (القمر)، وهو إذا أريد بالأول غير ما أريد بالثاني المكرر، فلا تكرار حينئذٍ، وهكذا الشأن مع قوله تعالى: ﴿فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ﴾[15]، فكل نعمة مختلفة عن سابقتها، وكلما ذكر نعمة أنعم بها قرر عليها ووبخ على التكذيب بها، كما قال الطبرسي، والخطيب الإسكافي[16].

ويتمثل الوجه الثالث من وجوه الإظهار والإضمار في صورة التشابه في التعبير القرآني في مواضيع متباعدة من القرآن، أي أن الإضمار يكون في آية، والإظهار يكون في آية أخرى تشبه الثانية إلا من حيث هذه الناحية، من مثل قوله تعالى: ﴿قَالَ فِرْعَوْنُ ءَامَنتُم بِهِۦ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[17] وقوله: ﴿قَالَ ءَامَنتُمْ لَهُۥ قَبْلَ أَنْ ءَاذَنَ لَكُمْ﴾[18].

فقد أظهر سبحانه ذكر فرعون في سورة (الأعراف)، وأضمره في سورتي (طه) و(الشعراء)، وفي هذا يقول العلماء الذين يُعنون بسياق الآيات وينظرون إلى السورة القرآنية على أنها ذات وحدة معنوية متكاملة، بأنه صرح بذكر فرعون في سورة الأعراف لوجود بُعْد بقدر عشر آيات بينه وبين وروده مضمراً في آيات سابقة في مثل قوله تعالى في سورة الأعراف: ﴿قَالَ نَعَمْ وَإِنَّكُمْ لَمِنَ ٱلْمُقَرَّبِينَ﴾[19]. في حين أنه جيء به مضمراً في سورتي (طه) و(الشعراء)، لأنه لم يبعد بعده في سورة الشعراء بل ورد متكرراً مفرداً، ومضمناً في جملة قومه[20] بل إن محمد بن حمزة الكرماني لا ينظر لكل سورة من القرآن على

---

(15) سورة الرحمن، الآية: 13.

(16) مجمع البيان، مج6، ح27، ص87، ودرة التنزيل وغرة التأويل، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ط4، 1401هـ، 1981م، ص464، 459، 537.

(17) سورة الأعراف، الآية: 123.

(18) سورة طه، الآية: 71.

(19) سورة الأعراف، الآية: 114.

(20) درة التنزيل، ص175.

انفراد، بل ينظر إليها كلها نظرة توحد وتماسك، فيقول بما أن سورة الأعراف سابقة على السورتين (طه) و(الشعراء)، فقد صرح في الأولى، وكنّى في الأخريين، وهو القياس[21].

تعال لنقف عند قوله تعالى في هٰتين الآيتين من سورتي البقرة والحجرات، وهما:

﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ ۚ وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[22].

﴿قُلْ أَتُعَلِّمُونَ ٱللَّهَ بِدِينِكُمْ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَمَا فِى ٱلْأَرْضِ ۚ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾[23].

فما السبب، يا ترى، في مجيء اسم الله تعالى مضمراً في الجزء الثاني من الآية الأولى ﴿وَهُوَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾، ومذكوراً في الجزء الثاني من الآية الثانية مرتين ﴿وَٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾ و﴿وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾؟.

الظاهر أن هناك دلالتين لفظية وأخرى معنوية. فأما اللفظية ففي هذا التناسب بين الضمائر في الآية الأولى، والأسماء المذكورة في الآية الثانية. وأما المعنوية فإن الآية الأولى فيها إشارة إلى نعم الله على الخلق الذين خلق لهم ما في الأرض جميعاً، ثم خلق لهم السموات السبع، في حين أن الآية الثانية من الحجرات فيها عدم رضا بل استنكار وتوبيخ استدعى استحضار لفظ الجلالة بذاته لما فيه من المهابة والتعظيم والتذكير بأنه العالم الذي لا يحتاج إلى أخبار أحد من الناس أو من غيرهم.

وبمثل هذا نقف عند قوله تعالى في هاتينِ الآيتين:

---

(21) أسرار التكرار في القرآن الكريم، دار بو سلامة، تونس، ط1، 1983، ص91، تحقيق عبد القادر أحمد عطا.

(22) سورة البقرة، الآية: 29.

(23) سورة الحجرات، الآية: 16.

﴿لَّٰكِنَّا۠ هُوَ ٱللَّهُ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِرَبِّىٓ أَحَدًا﴾[24].

﴿قُلْ إِنَّمَآ أَدْعُوا۟ رَبِّى وَلَآ أُشْرِكُ بِهِۦٓ أَحَدًا﴾[25].

فما السر وراء هذا التحوير في التعبير: الإظهار في آية الكهف (بربي)، والإضمار في آية الجن (به)؟

والناظر في سياق الآيتين يجد أن آية الكهف وردت في سياق قصصي، وهو قصة صاحب الجنتين الذي حاور صاحبه مفتخراً دالاً عليه بكثرة أمواله وعزته في نفره وظنه في بقاء جنته وعدم زوالها. فكان أن استعصم صاحبه الفقير بذكر ربه (لكن هو الله ربي) لاحظ الضمير (هو) ولفظ الجلالة (الله) و(الرب) الذي يربي عبده ولا يهمله، ثم كرر ذكر ربّه ثانيةً (ولا أشرك بربي أحدا)، للوقوف أمام الخصم المعتمد على ما لديه من مالٍ وعزة، ولكي يقول له: إن له معتمداً أقوى وركناً أمتن مما يعتمد هو عليه من عرضٍ سريع الزوال.

أمّا آية الجن، فلم ترد في مثل هذا السياق الدال على الصراع بين رجلين، أو قل مذهبين في الحياة، مذهب المادية والاعتداد بالمال والولد والجاه، ومذهب الألوهية وتوحيدها عند من لا يرى في غيرها عزّاً ولا بقاء. ولهذا جاء الذكر أولاً (أدعو ربي) ثم الإضمار ثانياً (به) على الأصل، بينما السياق في الآية الأولى خرج عن الأصل للدلالة التي أشرنا إليها.

ولعلك تستطيع أن تتأمل معي هذا الفارق بين الإظهار حيناً والإضمار حيناً آخر في هاتين الآيتين المتشابهتين:

﴿هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[26].

﴿لَقَدْ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ

(24) سورة الكهف، الآية: 38.

(25) سورة الجن، الآية: 20.

(26) سورة الجمعة، الآية: 2.

وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[27].

فسوف تلاحظ أن آية الجمعة تشير إلى أن الله سبحانه بعث رسولاً من أهل مكة (أم القرى)، من الأميّين الذين ينتسبون إلى (أم القرى)، فهو في هذه (منهم)، في حين أن آية آل عمران الثانية تتحدث عن المؤمنين خاصة، فهو من (أنفسهم) من خلاصة الحنيفية الإبراهيمية الموحدة. ولهذا كان الإضمار حيناً والذكر حيناً آخر.

وحين تقرأ سورة (نوح) عليه السلام تجده تعالى يذكر نوحاً مضمراً في بداية السورة ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى لَيْلًا وَنَهَارًا﴾ ثم يصرّح بذكره مرتين فيما بعد ﴿قَالَ نُوحٌ رَّبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِى . . .﴾[28] ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لَا تَذَرْ عَلَى ٱلْأَرْضِ مِنَ ٱلْكَٰفِرِينَ دَيَّارًا﴾[29]. لأنه سبحانه ذكر نوحاً في مستهل السورة ﴿إِنَّآ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِۦٓ﴾، ولم يكن هناك فاصل بين هذه البداية وبين الإضمار في قوله ﴿إِنِّى دَعَوْتُ قَوْمِى﴾ سوى ثلاث آيات، بل إنه سبقه بإضمار أول ﴿قَالَ يَٰقَوْمِ إِنِّى لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ﴾[30].

أما الذكر الذي جاء في الآية الحادية والعشرين (قال نوح) فقد كان فيه فاصل طويل تخلّله حديث نوح عن قصته مع عناد قومه، فاستدعى هذا الفصل الطويل أن يُعاد ذكر نوح ثانية وكأنه إسناد جديد، وإخبار جديد. هذا هو منطق الخطاب القرآني الذي لا يختلف عن الخطاب البشري في كثير من الحالات مع تفرد وخصوصية في حالات أخرى.

ولك أن تتأمل في مواضع كثيرة من الإضمار مرة والإظهار أخرى في آيات متشابهة في مثل ﴿إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ﴾[31]. و﴿إِلَى ٱللَّهِ مَرْجِعُكُمْ﴾[32]. و(يطبع)، و﴿يَطْبَعُ ٱللَّهُ﴾[33]، وغير هذا كثير في القرآن. . .

---

(27) سورة آل عمران، الآية: 164.

(28) سورة نوح، الآية: 21.

(29) سورة نوح، الآية: 26.

(30) سورة نوح، الآية: 2.

(31) سورة يونس، الآية: 4.

(32) سورة هود، الآية: 34.

(33) سورة الأعراف، الآية: 101.

ثانياً ـ إبهام الضمير:

من خصوصيات التعبير القرآني بشكل عام أنه يساق لمستويات مختلفة من المتلقين ذوي الاستعدادات المتفاوتة في الفهم والإحساس والتذوق. فهو يتوجه بمضامينه وعبره وأحكامه إلى طبقات من العلماء والعوام، من يستطيع أن يستنبط الأحكام ويتعمق في الفهم، ويتأنى في التلقي، ومن لا يتجاوب إلا مع ظاهر القول ولا يستطيع أن يسير مع التعبير إلى مدى بعيد. ومن المعلوم أن القرآن يبلغ هدفه من أولئك وهؤلاء على تفاوت موقع التأثير ودرجته في العمق.

ولعله بسبب من هذا وجد في التعبير القرآني ما سمي بالمحكم والمتشابه، والإجمال والبيان، والحقيقة والمجاز. وفي هذه الأنماط كلها شيء من الوضوح وآخر من الغموض والإبهام، ففي المتشابه والمجمل والمجاز درجات من الخفاء لا يقوى على التجاوب مع بواطنها إلا ذوو الاستعداد الفطري والعلمي والذوقي الممتاز، بينما الأمر مع المحكم والمبيّن والحقيقي مختلف، لأنه قريب من متناول عامة الناس، وإن لم يكن هذا التناول على درجة واحدة، شأنه شأن المستويات المتفاوتة في تعاملها مع المجمل والمجازي والمتشابه.

قد هيأ الله لكتابه العزيز من العلماء والأدباء والبلاغيين مَنْ يبيّن أسرار هذه الخصائص الأسلوبية ودواعيها، فقد ذكروا أن وجود المحكم والمتشابه في القرآن دعوة إلى الاستعانة بالعقل، وإطلاق عنان التفكير، ودلالة على رفض الجهل والتقليد[34]. ولو كان القرآن كله على درجة واحدة من الدلالات المحكمة، لما وجدنا هذا الفهم المعمق، والتذوق المتفاوت بين العلماء والأدباء منذ نزول القرآن حتى يوم الناس هذا، وإلى أن يبعث الله الأرضَ ومن عليها. وفي مجال الإجمال والبيان يقول الشيخ الزرقاني: (الجمع بين الإجمال والبيان، مع أنهما غايتان متقابلتان لا يجتمعان في كلام واحد للناس، بل كلامهم إمّا مجمل، وإما مبيّن، لأن الكلمة إما واضحة المعنى لا تحتاج إلى بيان، وإما خفية المعنى تحتاج إلى بيان، ولكن القرآن وحده هو الذي انخرقت

---

(34) ينظر بحث الأستاذ سعيد الفاندي. (من خصائص الدلالة القرآنية)، مجلة كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ع15، 1998، ص110، ومصدره: مفاتيح الغيب، للرازي، ح7، ص149.

له العادة، فتسمع الجملة منه، فإذا هي بينة ومجملة في آن واحد. أما أنها بيّنة أو مبيَّنة (بتشديد الياء وفتحها)، فلأنها واضحة المغزى وضوحاً يريح النفس من عناء التنقيب والبحث لأول وهلة، فإذا أمعنت النظر فيها لاحت منها معانٍ جديدة كلها صحيح أو محتمل لأن يكون صحيحاً، وكلما أمعنت فيها النظر زادتك من المعارف والأسرار بقدر ما تُصيبُ أنت من النظر، وما تحمل من الاستعداد على حد قول القائل:

يـزيـدك وجـهُـهُ حُـسْـنـاً إذا مـا زدتـه نَـظَـرا[35].

أما وجود الحقيقة والمجاز، فهي وإن كانت دلالة على أن هذا الكتاب جاء على شبه من الكلام البشري عموماً، وكلام أهل البيئة العربية التي نزل فيها، فإنه يدل على علو كعبه في البيان، وقدرته على التأثير في النفس البشرية بالقدر الذي يجعلها تتجاوب مع دعوته وتوجيهه وأوامره تجاوباً يبلغ الغاية من الطاقة الإنسانية. وهذا الذي حدث حقاً مع القوم الذين تلقوا القرآن فتفانوا في فهمه وتطبيقه وتبليغ دعوته إلى الناس.

ونتدرج بعد هذا من الحديث عن الأسلوب القرآني عموماً من حيث توفر الواضح والمبهم فيه، إلى الحديث عن الأسماء المبهمة في القرآن، وهي كثيرة ألف فيها عبد الرحمن السهيلي كتابه (التعريف والإعلام فيما أبهم في القرآن من الأسماء الأعلام)[36]، ثم تبعه في العناية بهذا النوع من التأليف ابن عساكر وابن جماعة والسيوطي وغيرهم. وقيل إن بعض الصحابة، وبعضاًمن علماء السلف كان يُعنى بهذا النوع من العلم، حتى قيل عن (عكرمة) إنه طلب اسم الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله، ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة[37].

---

(35) مناهل العرفان في علوم القرآن، ح2، ص323. ويقول السيد أبو القاسم الخوئي أنه مع وجود بعض الغموض في المعاني القرآنية، وأنها لا تتأتى إلا للعلماء النحارير، (ولكن ذلك لا ينافي أن للقرآن ظواهر يفهمها العارف باللغة العربية، وأساليبها، ويتعين له بعد الفحص عن القرائن)، تفسير البيان، دار الزهراء، بيروت، ط2، 1975، ص270.

(36) منشورات كلية الدعوة الإسلامية، طرابلس، ط1، 1992، تحقيق د. عبد الله محمد علي النقراط.

(37) التعريف والإعلام، ص51.

ولقد تحدث كل من الزركشي والسيوطي عن أسباب الإبهام في هذه الأسماء وذكرا منها:

1 ـ أن يكون أبهم في موضع وبُيّن في سياق آخر كقوله تعالى في سورة الفاتحة ﴿ٱلَّذِينَ أَنعَمتَ عَلَيهِم﴾، إذ بين في سورة النساء ﴿مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ﴾[38].

2 ـ أن يتعين لاشتهاره كقوله ﴿ٱسكُن أَنتَ وَزَوجُكَ ٱلجَنَّةَ﴾[39].

3 ـ قصد الستر عليه، ليكون أبلغ في استعطافه، كقوله تعالى: ﴿أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنهُم﴾[40]، قيل: هو مالك بن الصَّيِّف.

4 ـ التنبيه على التعميم، كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَموَٰلَهُم بِٱلَّيلِ وَٱلنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾[41]. قيل نزلت في علي بن أبي طالب (رضي الله عنه)، كان له أربعة دوانق فتصدق بواحد بالنهار وآخر بالليل وآخر سراً وآخر علانية. إلى غير هذا من الدواعي للإبهام[42].

ومن المعلوم أن هذا الأمر من المبهمات في الاسم اضطلع به علم أسباب النزول، وهو علم جليل له فوائد جمة، إلا أنه فيما يتعلق بهذا الموضع، فإنّ العلماء أجهدوا أنفسهم في البحث والتنقيب على أن يكون المقصود في هذه الآية أو تلك هو فلان بن فلان، أو فلانة بنت فلان. ولو كان الأمر يقصد به تخصيص نزول الآية في شخص بذاته، لكان معلوماً لدى الجيل الأول من الصحابة، والجيل الذي تلاه، ولما وجدنا عبد الله بن عباس يبحث سنين طويلة عن الاسم الذي نزلت فيه هذه الآية أو تلك ـ إن صدق هذا البحث ـ ولما وجدنا (عكرمة) ظل يطلب الذي خرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم أدركه الموت أربع عشرة سنة!!

---

(38) سورة النساء، الآية: 69.

(39) سورة البقرة، الآية: 35.

(40) سورة البقرة، الآية: 100.

(41) سورة البقرة، الآية: 274.

(42) البرهان، ح1، ص159، والإتقان، ح2، ص145.

صحيح أنه قد يتعدد سبب النزول والنازل واحد، كما يقولون، ولكن أن يبلغ الأمر أنه مع الآية الواحدة التي يرد فيها الاسم المبهم، تجد المقصود بهم فلان، وفلان، وفلان.. وكما تشاء الأهواء. فإذا قرأنا، مثلاً قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ ٱلْإِيمَٰنَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ﴾[43]. قيل لنا: إنها نزلت في أبي بكر، وقيل في أبي عبيدة بن الجراح، وفي مصعب بن عمير، وفي عمر بن الخطاب، وفي علي وحمزة وعبيدة بن الحارث...[44].

والحق أَنّ في هذا البحث عن أسباب النزول، وفي معرفة أسماء المبهمات خاصة كثير من التكلف والتنطع، إن لم يكن هناك أسباب أخرى، ومنها ما لا ينسجم مع روح القرآن، وجلال توجيهاته والهدف من نزوله. ولعله من الأقرب إلى الصواب أن نقول إن قصد العموم في القرآن هو الذي يتبادر إلى أذهاننا ونحن نتأمل آياته الشريفة، لما في هذا من دلالة على اتساع المساحة المكانية والزمانية للتوجيه القرآني، فهو كتاب الله إلى البشرية بعامة، وهو نوره إليها إلى أن يرث الأرض ومن عليها.

فما دامت العبرة بعموم اللفظ وليس بخصوص السبب، كما يقول العلماء[45]، وما دام الخصوص موضع تأمل، وربما شك، لأنه يعتمد على روايات دخلها ما دخلها من أغراض وأهواء، فلماذا لا يؤخذ بالهدف العام من القرآن، ويكون السبب وسيلة فهم وإضاءة في سبيل هذا الفهم؟ ولماذا هذا البحث المضني وراء الشخص المقصود من هذه الآية أو تلك؟ اذكر على سبيل المثال إشارتهم إلى المقصود من قوله تعالى ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي ٱلْأَمْرِ﴾[46]، أنهما أبو بكر وعمر[47]. الحق أنه بمجرد ذكر شخص معين يقتل الإيحاء والعموم الذي

---

(43) سورة المجادلة، الآية: 22.

(44) الكشاف، ح3، ص212.

(45) ينظر البرهان، ح1، ص32، ومناهل العرفان، ح1، ص125.

(46) سورة آل عمران، الآية: 159.

(47) التعريف والإعلام، ص79، وقد يذكرون في آيات أخرى أسماء أشخاص عديدين، وينسون العموم الذي يهدف إليه القرآن.

تنشده الآية. والعجيبُ أنهم ينسبون هذا القول إلى صحابة كبار تتحرج أن تشك في أقوالهم مثل ابن عباس، والصحيح أن الشك هو في الروايات نفسها، وليس في صدق الصحابي نفسه.

هذا فيما يتعلق بالإبهام في الأسماء، فماذا عن الإبهام في الضمائر موضوع بحثنا؟

تتناول كتب النحو الضمير ضمن مبحث المعارف، مثل الاسم العلم والمعرف بأل، واسم الإشارة والاسم الموصول، والغريب أنهم يقولون إنه أعرف المعارف الست، كما يقول ابن هشام[48]. ونحن نعتقد أن الموضوع لو تناوله البلاغيون أول الأمر، لكانت وجهة البحث في الضمائر غير الوجهة النحوية الصرفة. ونحن لا نشعر أن الضمير أكثر تعريفاً من الاسم العلم، كما يرى ابن هشام، إلا من جهة واحدة، هي جهة المتكلم الذي يعني ما يريد بذكر الضمير، فهو كما يقال، يشير إلى معلوم في الذهن، ولكن الأمر مختلف مع المتلقي أو السامع، ومن جهته يدخل التفاوت في الفهم والإحساس بالإبهام، وقد يكون الإبهام نفسُه مقصوداً من لدن المنشئ أو المتكلم. ولهذا ترانا نختلف في المقصود بهذا الضمير أو ذاك في القرآن الكريم، وفي كلام البشر عموماً.

ولقد تناول علماء (المبهمات) الضمائر بالطريقة نفسها التي تناولوا بها الأسماء المبهمة، فهم يبحثون عن المقصود بالضمير، وقد يتمحلون ويتكلفون ويلجؤون إلى أسباب النزول ما صحّ منها وما لم يصح. بل إنهم ليصرّون ـ أحياناً ـ على ذكر المقصود بالضمير حتّى لو كان المعنى الظاهر للآية يشير أنه لا فائدة وراء البحث عن المقصود بالضمير، لأنه في علم الغيب الإلٰهي، كقوله تعالى: ﴿وَءَاخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ ٱللَّهُ يَعْلَمُهُمْ﴾[49]. فهم مجهولون. والله ـ سبحانه ـ أراد أن يكونوا مجهولين، فلماذا البحث عن ذكرهم؟[50].

---

(48) قطر الندى، وبل الصدى، المكتبة التجارية الكبرى، القاهرة، ط11، 1963، ص94، شرح محمد محيي الدين عبد الحميد.

(49) سورة الأنفال، الآية: 60.

(50) وهذا القول استنكره السهيلي على من قال إنهم بنو قريظة، أو الجن. ينظر: التعريف والإعلام، ص126.

ويهمنا في سياق البحث أن ننظر إلى بعض مواضع الضمائر ونتأمل درجاتها من حيث وضوح أو إبهام ما تعود إليه، وهو أمر يختلف عن البحث عن المسميات التي تدل عليها هذه الضمائر على طريقة البحث عن (المبهمات) من الأسماء والضمائر.

ولقد قسم النحويون ضمير الغيبة إلى أقسام عديدة من حيث عودته[51]، ويهمنا نحن أن نصنف هذا الضمير إلى ثلاث درجات من حيث وضوحه وإبهامه في عودته على الاسم:

الأول: ما كانت عودته واضحة وضوحاً تاماً ليس فيه لبس على قارئ أو سامع، مثل ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾[52]. أو ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ ٱبْنَهُۥ﴾[53]. فليس هناك احتمال للاختلاف حول عودة الهاء إلى آدم في الآية الأولى، أو عودتهما إلى نوح في الآية الثانية.

والثاني: ما أمكن الاهتداء إليه من خلال السياق أو منطق الأمور، وهو وإن لم يكن عسير الفهم، فإنا أدرجناه في الدرجة الثانية، لأنه يحتاج شيئاً من التأمل، لا يحتاجها النوع الأول. ومنه قوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾[54]، وقوله: ﴿حَتَّىٰ تَوَارَتْ بِٱلْحِجَابِ﴾[55]، وقوله: ﴿كَلَّآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلتَّرَاقِيَ﴾[56]، وقليل من التأمل يهدي إلى أن المقصود بالأولى الأرض، وبالثانية الشمس، وبالثالثة الروح. ولعله بسبب عدم الوضوح التام، كما في النوع الأول، سماه البلاغيون الأوائل بـ (الكناية)، وهو إطلاق على الضمير عموماً، كما يفعل النحويون. وهذا يعني أن الضمير يشبه (الكناية) في علم البيان في أنها تفهم من خلال سياق الكلام من غير أن يذكر الاسم في العبارة ذكراً صريحاً مباشراً[57].

---

(51) ينظر البرهان، ح4، ص25.

(52) سورة طه، الآية: 121.

(53) سورة هود، الآية: 42.

(54) سورة الرحمن، الآية: 26.

(55) سورة ص، الآية: 32.

(56) سورة القيامة، الآية: 26.

(57) الكشاف، ح1، ص251.

بل إن هذا النوع على قرب مأخذه قد يعود إلى أمرين يرجح السياق أو العقل أحدهما، من مثل قوله تعالى: ﴿وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[58]، أو ﴿وَيُطْعِمُونَ ٱلطَّعَامَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ﴾[59]، فهو قد يشير إلى حب الله، أو إلى حب الإيتاء أو الطعام. ومثله قوله تعالى: ﴿وَقَالَ لِلَّذِى ظَنَّ أَنَّهُۥ نَاجٍ مِّنْهُمَا ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ فَأَنسَىٰهُ ٱلشَّيْطَٰنُ ذِكْرَ رَبِّهِۦ﴾[60]. فالضمير في (ربك) يعود إلى الملك، أي صفني عند سيدك، ولكن الضمير الثاني في (ربه)، قد يعود إلى الملك أيضاً، أي أنساه الشيطان أنْ يذكره لربه الملك، وقد يعُودُ إلى الله سبحانه، أي أنّ الشيطان أنسى (يوسف) ذكر الله حين وكل أمره إلى غيره، كما يقول الزمخشري[61]. ونحن هنا يمكن أن نخطئ الزمخشري في هذا القول، ولكن عدم الوضوح التام يجعل من حق الزمخشري أو غيره أن يفهم هذا الفهم بناءً على تعدد المعاني القرآنية في النص على أساس القرائن المعينة، أو الإيحاءات الظلالية للتعبير.

والناس ـ بطبيعتهم ـ يتفاوتون في الفهم حتى في هذا النوع القريب من الوضوح من الضمائر. فقد ذكر الزركشي أن كثيراً من الناس يفهمون الضمير في (هم مظلمون) من قوله تعالى: ﴿وَءَايَةٌ لَّهُمُ ٱلَّيْلُ نَسْلَخُ مِنْهُ ٱلنَّهَارَ﴾[62]، على أنه يعود على الليل والنهار على أساس أنّ أقل الجمع اثنان. في حين أنه واضح الدلالة في عودته على الكفار. ومثل قوله تعالى: ﴿أَوَلَيْسَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ بِقَٰدِرٍ عَلَىٰٓ أَن يَخْلُقَ مِثْلَهُم﴾[63]. فالضمير في (مثلهم) ـ كما يظن بعضهم ـ يعود على السموات والأرض، في حين أنه واضح الدلالة في العودة إليهم[64].

أمّا النوعُ الثالثُ، فهو الذي يسمح بتعدد الفهم على ضوء الاستعدادات،

---

(58) سورة البقرة، الآية: 177.

(59) سورة الإنسان، الآية: 8.

(60) سورة يوسف، الآية: 42.

(61) الكشاف، ح2، ص38.

(62) سورة يس، الآية: 37.

(63) سورة يس، الآية: 81.

(64) البرهان، ح4، ص34.

والثقافات والاتجاهات الفكرية والمذهبية. ومثله قوله تعالى في قصة الإسراء والمعراج: ﴿وَٱلنَّجْمِ إِذَا هَوَىٰ * مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَىٰ * وَمَا يَنطِقُ عَنِ ٱلْهَوَىٰٓ * إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَىٰ * عَلَّمَهُۥ شَدِيدُ ٱلْقُوَىٰ * ذُو مِرَّةٍ فَٱسْتَوَىٰ * وَهُوَ بِٱلْأُفُقِ ٱلْأَعْلَىٰ * ثُمَّ دَنَا فَتَدَلَّىٰ * فَكَانَ قَابَ قَوْسَيْنِ أَوْ أَدْنَىٰ * فَأَوْحَىٰٓ إِلَىٰ عَبْدِهِۦ مَآ أَوْحَىٰ﴾[65].

والخلاف في عودة الضمير في (دنا وتدلى) و(كان)، ففي (دنا فتدلى) هل هو جبريل (عليه السلام)، أم محمد ﷺ؟ والمعنى، كما يقول الطبرسي: قرب بعد بعده وعلوه في الأفق الأعلى، فدنا من محمد ﷺ. والتدلي: الامتداد إلى الأسفل، وهو المعنى الذي ذكره الزمخشري، كذلك، وعليه الغالبية من المفسرين[66]. أي أن الضمير يعود على (جبريل) من خلال الآيات السابقة، فهو شديد القُوى، وهو ذو المرة، وهو الذي استوى، وهو الذي دنا وتدلى وقرب من الرسول فرآه رؤية عيانية مباشرة. وكان بعدها أن أوحى الله إلى عبده (رسول الله) من خلال الملك جبريل.

ولكن الشيخ محمد متولي الشعراوي يرى أن الرسول هو الذي دنا من الذات الإلٰهية فرآها رؤية عيانية مباشرة، بعد أن مر بمرحلة غير المرحلة البشرية وغير الملائكية، بل (ملائكية الملائكية)، استطاع بها بفضل الله أن يجتاز الحجب ويرى ربّه مباشرة[67].

وهذا وإن كان الضمير العائد هو الذي حرّك هذا الخلاف، ولكن الخلاف في الواقع يرجع إلى مذاهب معينة في الفهم من قضايا (علم الكلام) منذ المراحل المبكرة من التاريخ الإسلامي.

---

(65) سورة النجم، الآيات: 1 ـ 10.

(66) مجمع البيان، مج6، ح27، ص27. والكشاف: ح3، ص176.

(67) ينظر: حديث الأحاديث للدكتور علي فهمي خشيم، الدار العربية للكتاب، طرابلس، ط1، 1398هـ، 1978م، ص49 وما بعدها. وقد بين الكاتب عدم صواب رأي الشيخ الشعراوي في قضية رؤية الرسول لربه رؤية مباشرة. وأثبت هذا من خلال القرآن والأحاديث النبوية، فضلاً عن حكم العقل واللغة العربية وقواعدها والكتاب مناقشة لآراء الشيخ في كتابه (الإسراء والمعراج)، دار الشروق، القاهرة، ط1973.

ونحن في هذا المقام لا نخطّئ أحداً، وإن كانَ سياقُ الآيات، وتوجيهات القرآن نفسه، وفي أكثر من موضع، تبعّد فهم الشيخ الشعراوي، الذي اعتمد فيه على رواية للطبري، وما كان القرآن ليناقض نفسه.

المهم عندنا في سياق البحث أن الضمير العائد يتيح لتعدد الفهم، وإنْ كان هناك منطق للّغة ومنطق للعقل بل منطق القرآن نفسه يقودنا إلى الفهم الصحيح لآياته التي لم يرد بها التعمية واللبس.

وقد يُذكر شيئان ويعود الضمير على أحدهما، والغالب في القرآن الكريم أن يعود إلى الثاني، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ﴾[68]، فأعاد الضمير للصلاة لأنها أقرب، ولكننا نجد الضمير في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا رَأَوْاْ تِجَٰرَةً أَوْ لَهْوًا ٱنفَضُّوٓاْ إِلَيْهَا﴾[69]. قد عاد على التجارة وإن كانت أبعد. والنكتة في هذا، كما يقول الزركشي، أن التجارة (أجذب لقلوب العباد عن طاعة الله من اللهو، بدليل أنّ المشتغلين بها أكثر من اللهو، ولأنها أكثر نفعاً من اللهو، أو لأنها كانت أصلاً واللهو تبعاً، لأنه ضرب بالطبل لقدومها على ما عرف من تفسير الآية)[70].

وعودة الضمير هذه إلى الاسم الأقرب أو الأبعد تساعد على تعدد الفهم. ففي قوله تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوْمًا لَّا تَجْزِى نَفْسٌ عَن نَّفْسٍ شَيْـًٔا وَلَا يُقْبَلُ مِنْهَا شَفَٰعَةٌ وَلَا يُؤْخَذُ مِنْهَا عَدْلٌ﴾[71]. يحتمل عودة الضمير إلى النفس الأولى الشافعة أو إلى النفس الثانية المشفوع لها. قال الزمخشري: (فإن قلتَ: الضمير في ولا يقبل منها [على قراءة قتادة بالياء في تقبل] إلى أي النفسين يرجع؟ قلتُ: إلى الثانية العاصية، غير المجزي عنها... ويجوز أن يرجع إلى النفس الأولى)[72]. وتبع هذا خلاف حول جواز الشفاعة للعصاة أو عدم جوازها، وكان الخلاف بين

(68) سورة البقرة، الآية: 45.
(69) سورة الجمعة، الآية: 11.
(70) البرهان، ح4، ص32.
(71) سورة البقرة، الآية: 48.
(72) الكشاف، ح1، ص215.

المعتزلة الذين تعلقوا بهذه الآية على نفي الشفاعة، وبين أهل السنة الذين أجابوا عنها بأجوبة كثيرة[73]. وكان لعودة الضمير وفهم كل جماعة له على أنه يعود إلى القريب أو البعيد، مبعث إلى تعدّد هذا الفهم والتأويل.

ثالثاً ـ توكيد الضمير:

أسلوب التوكيد في القرآن الكريم متعدد الأشكال والأدوات، كثير الأغراض والأهداف، ومن صوره التوكيد بضمير الفصل، وهو الجانب المتعلق ببحثنا.

وأسلوب التوكيد بشكل عام وضمير الفصل فيه بشكل خاص يتناوله النحويون والبلاغيون معاً ولهم فيه أبحاث تتفرع منها قضايا كثيرة، ويهمنا هنا الدلالة المعنوية، ومناسبة مقتضى الحال، وما يقتضيه السياق، وهو جانب من جوانب عمل البلاغيين في التعامل مع النصوص بعامة، والنص القرآني بخاصة.

وضمير الفصل هذا تذكر له ثلاث فوائد:

الأولى: لفظية، وهي الإعلام بأنّ ما بعد المبتدأ خبر وليس صفة. فقولنا زيدٌ هو القائم، يجعل من القائم خبراً لا تابعاً، ولذلك سمي فصلاً لأنه فصل بين الخبر والتابع. ويسمّى عماداً لأنه يعتمد عليه معنى الكلام.

الثانية: معنوية، وهي التوكيد، وقد سماه بعض الكوفيين دعامة لأنه يدعم به الكلام أي يقوى ويؤكد.

الثالثة: معنوية أيضاً، وهي الاختصاص، على ما ذكره البلاغيون، وهو إثبات المسند للمسند إليه دون غيره[74].

---

(73) البرهان، ح1، ص124، وما بعدها. وتنظر الآية 123 من سورة البقرة أيضاً، وبينها وبين هذه الآية تشابه كبير، مع اختلاف في التقديم والتأخير، وينظر الاتقان، ح2، ص115.

(74) ينظر، أساليب التوكيد في القرآن الكريم، عبد الرحمن المصراوي، الدار الجماهيرية، طرابلس، ط1، 1986، ص343، ومصادره، مغني اللبيب، ج2، ص495، والكشاف، ح1، ص112.

ففي قوله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾[75]. تكون وظيفة الضمير (هم) أنه يخص أولئك الهداة بالفلاح دون غيرهم، فهم هم على هذه الحقيقة التي اختصهم بها، وأنالهم ما لا يناله أحد[76].

ويتكرر ورود ضمير الفصل هذا في صور شتى في القرآن الكريم من مثل: ﴿وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾[77]. و﴿إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾[78]. ومن خلال موقعه في الجملة يشع بدلالات معينة. فهو يأتي لتقوية الحكم وتقريره ـ كما يقول البلاغيون ـ في مثل قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ هُم بِرَبِّهِمْ لَا يُشْرِكُونَ﴾[79]، إذ هو أبلغ في تأكيد نفي الإشراك مما لو قيل: والذين بربهم لا يشركون[80].

ويمكن الإشارة هنا أنه ترد آياتٌ متشابهة في القرآن الكريم، مرة يرد فيها ضمير الفصل ومرة ترد بدونه، وذلك لملاحظ بلاغية تتّبعها علماء المتشابه الأسلوبي في القرآن، وذلك من مثل قوله تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾[81].

﴿إِنَّ اللَّهَ هُوَ رَبِّي وَرَبُّكُمْ﴾.[82]

والآيتان وردتا في سياق قصة مريم وولدها عيسى (عليهما السلام) ولكن في (آل عمران) وردت الآية بدون ضمير الفصل لأنها وقعت بعد عشر آيات من القصة من أول قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتِ الْمَلَائِكَةُ يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاكِ وَطَهَّرَكِ﴾[83]، فلم تكن الآية بحاجة إلى تأكيد. وليس كذلك ما في الزخرف،

---

(75) سورة البقرة، الآية: 5.

(76) الكشّاف، ح1، 114.

(77) سورة التوبة، الآية: 104.

(78) سورة الأنعام، الآية: 119.

(79) سورة المؤمنون، الآية: 59.

(80) علمُ المعاني، د. عبد العزيز عتيق، دار النهضة العربية، ط1، 1985، ص152.

(81) سورة آل عمران، الآية: 51.

(82) سورة الزخرف، الآية: 64.

(83) سورة آل عمران، الآية: 42.

فإنه ابتداء كلام منه، فحسُنَ التوكيد بقوله (هو) ليصير المبتدأ مقصوراً على الخبر المذكور في الآية، وهو إثبات الربوبية، ونفي الأبوة، كما أشار الكرماني[84].

وإذا تتبعت آي الذكر الحكيم فإنك تجد آيات من مثل: ﴿خَٰلِدِينَ فِيهَآ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[85]، بدون الضمير، ومعه في مثل: ﴿وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ أَكْبَرُ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[86]. وذلك في آيات كثيرة، ولا يتسع المجال لمتابعة صورها، خاصة وأننا علمنا من خلال البحث دلالة ضمير الفصل ووظيفته المعنوية، وهو غير الوظيفة النحوية، كما ذكرنا.

ونريد أن نقف بعد هذا عندما سمّاه ابن الأثير بـ (توكيد الضميرين) في مثل قولنا: إنك أنت، أو (أنت أنت)، وقال عنه إنه يأتي في معرض المبالغة، وإنه من أسرار علم البيان، ثم ذكر قاعدة استوحاها من نماذج القرآن ونماذج الأدب العربي القديم، وهي: (إذا كان المعنى المقصود معلوماً ثابتاً في النفوس، فأنت بالخيار في توكيد أحد الضميرين فيه بالآخر، وإذا كان غير معلوم، وهو مما لا شك فيه، فالأولى حينئذٍ أن يؤكد أحد الضميرين بالآخر في الدلالة عليه، لتقرره وتثبته)[87]. وجاء من ذلك قوله تعالى: ﴿قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِمَّآ أَن تُلْقِيَ وَإِمَّآ أَن نَّكُونَ نَحْنُ ٱلْمُلْقِينَ﴾[88]. فإن إرادة السحرة الإلقاء قبل موسى لم تكن معلومة عنده، فلما كان هذا الخطاب منهم بالتوكيد (وإما أن نكون نحن الملقين)، عرف أنهم يريدون التقدم عليه، وهذا سر التوكيد بالضميرين.

ومن توكيد الضميرين المتصل بالمتصل قوله تعالى: ﴿أَلَمْ أَقُل لَّكَ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[89]. وهما الكاف في (لك)، و(إنك). بينما لم يؤكد الضمير

---

(84) أسرار التكرار، ص49.

(85) سورة النساء، الآية: 13.

(86) سورة التوبة، الآية: 72.

(87) المثل السائر، ح2، ص151.

(88) سورة الأعراف، الآية: 115.

(89) سورة الكهف، الآية: 75.

المتصل الأول بالضمير المتصل الثاني في قوله قبل هذه الآية بثلاث آيات: ﴿أَلَمْ أَقُلْ إِنَّكَ لَن تَسْتَطِيعَ مَعِيَ صَبْرًا﴾[90]. بدون (لك).

وذلك أَنّ فَرْقاً بين القصتين قصة الغلام في الأولى، وقصة السفينة في الثانية، فإن الخطاب في قصة السفينة كان أقل عتاباً ولوماً لموسى، ولكنّ هذا العتاب ازداد بعد رفض موسى الوصية وإلحاحه في السؤال، فكان من المناسب توكيد الضمير الأول بالثاني (لك)، ويمثل ابن الأثير لهذا بموقف الإنسان من شخص تنهاه عن شيء فيأتيه، ثم تنهاه، فيأتيه ثانية، ألا تحتاج بعد هذا إلى أن تزيد في لومه وتعنيفه؟[91].

ومن هذه الصور لتوكيد الضميرين هذه النماذج من ذكر الله تعالى لذاته سبحانه:

﴿إِنِّيٓ أَنَا۠ رَبُّكَ﴾[92]، ﴿إِنَّنِيٓ أَنَا ٱللَّهُ﴾[93].

وفي سورة النمل: ﴿يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّهُۥٓ أَنَا ٱللَّهُ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[94] ومنها هذه الصور في الآيات الثلاث:

﴿إِنَّكَ أَنتَ عَلَّٰمُ ٱلْغُيُوبِ * كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ * فَإِنَّكَ أَنتَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ﴾[95].

في لحظة من لحظات الخطاب الخالص العبودية لله من لدن عبده عيسى بن مريم يريد أن ينفي أية شبهة في هذه العبودية، حين قال له ربه سبحانه: ﴿يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾[96].

---

(90) سورة الكهف، الآية: 72.

(91) نفسه، ح4، ص152.

(92) سورة طه، الآية: 12.

(93) سورة طه، الآية: 14.

(94) سورة النمل، الآية: 9.

(95) سورة المائدة، الآيات: 116 ـ 118.

(96) سورة المائدة، الآية: 116.

ولا شيء من التكرار في هذه كله، ولو ورد شيء من التشابه أو التكرار فهو لفائدة. قال ابن الأثير: (فاعلم إنه ليس في القرآن مكرر لا فائدة من تكريره، فإن رأيتَ شيئاً منه تكرر من حيث الظاهر، فأنعمْ نظرك فيه، فانظرْ إلى سوابقه ولواحقه لتنكشفَ لك الفائدة منه)[97].

ويمكن أن يستمر البحث في بلاغة الضمير، فيتناول موضوعات متصلة بهذا الجانب من مثل: حذف الضمير، والالتفات، وإفراد الضمير وتثنيته وجمعه، وتذكيره وتأنيثه، إلى غير ذلك من الموضوعات التي تتناول الضمائر من الوجهة البلاغية والمعنوية. ولكننا آثرنا الوقوف بالبحث عند هذا الحد رغبةً في تناول تلك الجوانب في أبحاث مستقلة.

(97) نفسه، ج2، ص149.